# مجلة المعجمية - تونس

# ع 23

# 2007

# قضايَا التّعريف الدّلاليّة
# في المعْجَم العَربيّ التّاريخيّ

إحسان النص

إنّ وضع معجم تاريخيّ للغة العربية هو من أوكد الواجبات المفروضة على الأمة العربية وعلى اللغويين العرب في هذا العصر ، فليس ثمة أمّة من الأمم لها لغة عريقة جاوزت سنّها اليوم ستة عشر قرنًا وهي ما تزال محافظة على أصولها القديمة تضاهي الأمّة العربية في هذا الشأن . فما زالت لغة هذه الأمة نابضة بالحياة يعبّر بواسطتها عن أفكَار المُفكّرين وإبداع المبدعين من رجال الأدب والفنّ في جميع الأقطار العربية . بها تُؤلّفُ الكتب في شتى الموضوعات ، وتُحَرَّرُ المقالات ، وتُلْقَى المحاضرات ، ويتَعَلّمُهَا الطلاّب في مختلف مراحل التعليم .

ولهذه الظاهرة الفريدة تعليلاتها وأسبابها .

أوّل هذه التعليلات أنها لغة القرآن الكريم ، فالقرآن نزل باللغة العربية الفصيحة وبلهجة قريش ، فعكف المسلمون على قراءته وسُحِروا ببلاغته ، فكان إمامًا لهم في خطبهم ورسائلهم وكتبهم ، وكان مادّة التعليم الأولى في الكتاتيب والمدارس وحلقات المساجد .

ولِما للقرآن من قداسة دينية غدت اللغة التي نزل بها هي النموذج الأعلى للفصاحة والبلاغة وسلامة اللغة . واستمرت لغة القرآن طوال القرون الماضية وحتى اليوم تفرض سلطانها على الكُتّاب والمتعلّمين والمؤلّفين ، فالقرآن هو الذي أتاح لهذه اللغة الاستمرار والبقاء ، وهذا جانب إيجابي لكتابنا الكريم ، فلم تتعرض لغتنا لرياح التغيير أو الانقراض

شأن لغات أخرى كثيرة ، فما زلنا حتى اليوم ، بفضل ثبات النموذج القرآني وهيمنته ، قادرين على قراءة شعر عربي يرجع تاريخ نظمه إلى ما قبل خمسة عشر قرنًا ، وأحسب أن هذه الظاهرة لا مثيل لها في أيّ لغةٍ أخرى من لغات العالم .

فاللغات الأوروبية مثلاً ، على اختلاف أصولها اللغوية ، أصابها تطور وتحوّل جذري منذ انحدارها من أصولها الأولى حتى اليوم ، مع أن عمرها لا يتجاوز قرونًا معدودات ، وبات الناطقون باللغات الأجنبية اليوم عاجزين عن فهم لغاتهم في أصولها القديمة .

وثمّة جانب آخر لا ينبغي إغفاله ، وهو أن لغة القرآن في هيمنتها وسلطانها على الناطقين والكاتبين بها لم تُتح للغتنا العربية أن تتطوّر تطورًا ذا شأن ، قياسًا إلى اللغات الأخرى ، فما زال جُلّ ألفاظها يحمل الدلالات التي عرفت منذ العصور الأولى ، ولم يطرأ عليها تطوّر جذري يباعد بين دلالاتها القديمة ودلالاتها المحدثة .

والسبب الثاني في ضآلة ما طرأ على لغتنا من تطور دلالي هو أن مادة ثقافتنا الأولى إنما هي كتب التراث في شتّى مناحيه ، نقرأ مثلاً من كتب الأدب كتب الجاحظ وأبي حيان التوحيدي وأبي الفرج الأصفهاني وابن قتيبة وغيرهم ، ونقرأ كتب التاريخ والجغرافية والتراجم التي ألفها المؤلفون القدامى ، وكل هذه المؤلفات اعتمدت اللغة العربية الفصيحة ، ونحن نحاول محاكاة كتب التراث في أساليبها ولغتها وطرق أدائها . وعلى تباين أساليب الكُتّاب والمؤلّفين فإن القاسم المشترك بين هؤلاء إنما هو اعتمادهم اللغة المتوارثة عن الأسلاف .

وثالث هذه الأسباب يتمثل في التقنين اللغوي والنحوي الذي قام به لغويُّونا وعلماء النحو القدامى ، وقد وقف هؤلاء بحزم إزاء أي محاولة تتوخى انتهاك الأصول اللغوية والنحوية المتوارثة باستثناء فئة قليلة منهم تجرأت على انتهاك حرم هذه الأصول — ابن مضاء مثلاً — ولم يُقدَّر لمحاولتها النجاح . وهذا الأمر يفسّر لنا ما نعانيه اليوم من جمود قواعد النحو العربي مثلا في قوالبه المتوارثة والعجز عن إيجاد قوالب جديدة ، بل إن من حاولوا ذلك اتهموا بالخروج عن صراط اللغة والتنكر للهويّة العربية والانتماء القومي ، ومازال حراس هذا البناء الشامخ يتصدّون لكل من يحاول انتهاك (عرض) اللغة العربية .

ولكن هل يفهم ممّا قدّمته أنّ لغتنا العربية اليوم هي صورة نسخية لما كانت عليه هذه اللغة في الأعصر الأولى ؟

إن القول بعدم تطور لغتنا هو بمثابة تجاهل لسنن الطبيعة ونواميس الحياة ، فاللغة كائن كسائر الكائنات الحيّة لا مناص لها من أن تخضع لقانون التطور الطبيعي ، وقد لا يكون تطور اللغة العربية مماثلاً لتطور اللغات الأخرى للأسباب التي ذكرتها ، ولكن من المهمّ أن نرصد هذا التطور منذ أقدم العصور حتى يوم الناس هذا ، ومن هنا نرى ضرورة وضع معجم تاريخي للغتنا العربية يرصد هذا التطور .

على أن وضع هذا المعجم لن يكون أمرًا سهلاً ، والطريق إليه لن يكون مُذَلَّلاً ، ولنضع في حسباننا أن صعوبات جمة سوف نلقاها لدى إنفاذه ، ومردّ هذه الصعوبات من نَحْوٍ إلى اتساع رقعة الأقطار التي عاشت اللغة العربية في رحابها ومن نحوٍ آخر إلى امتداد الحقبة الزمنية التي عاشتها هذه اللغة .

## 1 – دلالات الألفاظ والتعبيرات اللغوية في مرحلة ما قبل الإسلام :

والخطوة الأولى ، في ظني ، هي الإحاطة برصيد دلالات الألفاظ والتعبيرات اللغوية في مرحلة ما قبل الإسلام ، وإثبات تعريفات دقيقة لهذه الدلالات ، ثم نتابع مسيرنا إلى سائر العصور .

ولإنفاذ الخطوة الأولى هذه ينبغي أن نضع في اعتبارنا أمورًا ، منها أنّ اللغة العربية لم تكن واحدة في جميع البقاع التي عاش فيها العرب قبل الإسلام ، مع تسليمنا بأن قدرًا مشتركًا بين لغات القبائل العربيّة كان قائما عصرئذ في النشاط التعبيري الأدبي ، ولا سيما في لغة الشعر الجاهلي . وهذا القدر المشترك يمكن أن نطلق عليه مصطلح "اللغة الأدبية المشتركة" .

وهذه الظاهرة تماثل ما نجده اليوم من اختلاف اللهجات بين الأقطار العربيّة ، وهذه اللهجات هي ما ندعوه باللغات أو اللهجات العامية واللهجات المحلية ، ولكننا نجد إلى جانبها لغة فصيحة مشتركة تستخدم في المؤلفات والمقالات والمحاضرات ونحوها ،

وهذه اللغة المشتركة هي التي تسهّل التّواصل الفكريّ والأدبي بين مختلف هذه الأقطار . على أنني لا أسلّم مع ذلك بأن اللغة الفصيحة المستعملة في كل قطر عربي تماثل أخواتها في الأقطار الأخرى مماثلة تامة ، فثمة اختلافات في الدلالات الدقيقة للألفاظ ، والتعبيرات بين لغات الكتاب والناطقين في هذه الأقطار ، وفي الألفاظ التي اصطلح الكاتبون على استعمالها في كل قطر، وأنا أجد في الكتب والرّسائل والمؤلّفات التي تصلنا من المغرب العربي ألفاظًا ومصطلحات تغاير تلك المستخدمة في المشرق العربي .

وأعود إلى اللغات واللهجات التي كانت سائدة قبل الإسلام في الجزيرة العربية ، فإنني أزعم أن لغة الشعر لم تكن واحدة في جميع أرجاء بلاد العرب ، بل كان ثمة فروق دقيقة في دلالات الألفاظ والتراكيب والتعبيرات المجازية ، وهذه الفروق مردّها إلى تباين البيئات التي عاش فيها الشعراء من نحو ، وإلى تباين لهجات القبائل العربية من نحو آخر .

لا يسعنا ، والأمر على ما ذكرت ، أن نعرّف دلالات لفظ ما تعريفًا يصدق على لغات جميع الجماعات القبلية المتناثرة في أرجاء جزيرة العرب ، ولا يمكن الاعتماد على المعجمات اللّغوية لرصْد هذه الفروق ، لأن مدوِّني اللغة جمعوا كلّ ما وصل إليهم من لغات القبائل العربية في منظومة لغوية واحدة . والنّهج العلميّ يقتضي أن نرصد لغة كل قبيلة على حدة ، وهذا الرّصد يضعنا أمام صعوبات جمّة ليس من اليسير تذليلها . فما هي الوسائل المتوفرة لدينا لتحقيق هذا الرصد ؟

في ظنّي أن الوسيلة شبه المتاحة لنا هي أن نَجْمَعَ شعرَ كلّ قبيلة على حدة ، ثم نستخلص من هذا الشعر دلالات الألفاظ والتراكيب والتعبيرات المجازية ؛ ويمكن الاعتماد في استخلاص هذه الدلالات على السياق التعبيريّ وعلى الشروح اللغوية ، وقد نضيف إلى الشعر ما أثر من الحِكم والخطب الجاهليّة . ولو أن مدوِّني الشعر الجاهليّ قاموا بتدوين شعر كل قبيلة على حدة لسهّلُوا علينا أمر استقصاء الدّلالات ، ولكن هذا التّدوين لم يتمّ إلا في شعر طائفة من القبائل ، ومنها على سبيل المثال قبيلة هُذيل التي جمعت أشعارها في ديوان صنعه أبو سعيد السكّري .

ومن المؤسف أن قبائل أخرى جمعت أشعارها في دواوين ولكنها لم تصل إلينا ، ونجد ذِكْرًا لطائفة منها في كتاب الفهرست للنديم ، ومن المفيد أن نعثر على ما قام به بعض الباحثين المحدثين في جمعهم أشعار طائفة من القبائل .

وإذا عدنا إلى كتب اللغة ومعجماتها وأخبار القبائل العربية نقع على إشارات إلى جوانب من اختلافات اللغات باختلاف البيئات والقبائل . فنلاحظ أوّلاً أن الباحثين اللغويين يذكرون أن ثمّة تباينًا كبيرًا بين لغة القحطانيين المستقرين في بلاد اليمن جنوبي الجزيرة العربية ، ولغة العدنانيين في شمالي الجزيرة وشرقيها . وهذا التباين كان قديما في زمن الدّول اليمنية القديمة يمثل لغتين مختلفتين كلّ الاختلاف ، فنسمع مثلاً أبا عمرو بن العلاء يقول : "مَا لِسَانُ حِمْيَرَ وأَقَاصِي اليَمن بِلِسَانِنَا ولا عَرَبِيَّتُهُم بِعَرَبِيَّتِنَا" (1) ، ويقول ابن جني في الخصائص (2) : "لسنا نَشُكُّ في بُعد لغة حِمْيَر ونحوها عن لغة ابْنَيْ نزار" . فعلماء اللغة يتّفقون في أن بيْن لغة حمير واللغة العدنانية اختلافًا كبيرًا ، ويؤيد هذا الاختلاف ما وجد من النقوش اليمنية القديمة بالمسند الحميري ، فلغة هذه المساند تختلف عن اللغة العدنانية التي نزل بها القرآن سواء في رسم الحروف أو في نطقها ودلالاتها (3) .

فإذا أخذنا بهذه الأقوال ، وهي صحيحة ، كيف نفسّر ما وصلنا من شعر الشعراء الحميريين وأقوالهم ووصاياهم ، وقد وصلتنا باللّسان العدناني ؟! ففي كتاب "الإكليل" أشعار كثيرة منسوبة إلى شعراء حميريين قدامى وهي مقولة باللغة العدنانية التي قيل بها شعر الشعراء المضريين والربعيين ، فكيف نفسّر هذه الظاهرة ؟

نحن إزاء افتراضيْن : أوّلهما أن يكون ما وصلنا من شعر هؤلاء الشعراء الحميريين القدامى وأقيال حمير وتبابعتها مثل تُبّع شمر يرعش بن مالك ناشر النّعم وأسعد تُبّع وعلقمة بن ذي جدن وما وجد في قبوريّاتهم ، كل ذلك منحول موضوع بعد الإسلام .

والافتراض الثاني أن تكون لغة حمير القديمة تطورت مع الزمن حتى وصلت إلينا باللغة التي قيل بها الشعر العدناني . ويؤيد هذا الافتراض ما وصل إلينا من شعر الشعراء

---

(1) طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام الجمحي تحقيق محمود محمد شاكر ، 11/1 .
(2) الخصائص لابن جني تحقيق محمد علي النجار ، 386/1 .
(3) انظر مثلا كتاب (الإكليل) للحسن بن أحمد الهمداني 122/8 .

اليمنيين الذين عاشوا في أواخر العصر الجاهلي ، مثل عمرو بن معد يكرب الزبيدي المذحجي وعبد يغوث الحارثي واللجلاج الحارثي وغيرهم ، وهو شعر نرجح صحته ولا نجد فيه اختلافًا ذا شأن عن شعر شعراء مضر وربيعة .

وإذا أخذنا بالافتراض الثاني ينبغي أن نحكم بانتحال شعر كل من سبق الشعراء اليمنيين المتأخرين من شعراء حمير القدامى .

ويبقى بعد ذلك إشكال آخر ، فعلماء اللغة العرب والمؤرخون يكادون يجمعون على أن لغة قحطان هي اللغة العربية الأصلية وأن عرب شمال الجزيرة إنما تعلموا لغتهم من القحطانيين . وقد ذهب المؤرخون إلى تقسيم العرب ، بناء على هذه المقولة ، ثلاثة أقسام : العرب البائدة ، والعرب العاربة ، وهم القحطانيون ، والعرب المستعربة ، وهو العدنانيون . ويجعلهم بعضهم عاربة – أي بائدة – ومتعرّبة ومستعربة ([4]) .

وأيًا كان الخلاف في التوزيع الثلاثي فجل المؤرخين على أن إسماعيل بن إبراهيم – عليهما السلام – هو أول من تكلّم بالعربية ، وقد أورد ابن سلام ([5]) قول يونس بن حبيب : "أول من تكلم بالعربية ونَسِيَ لسان أبيه إسماعيل بن إبراهيم ، صلوات الله عليهما" . ويعلّلون هذا التّحوّل في لسان إسماعيل بإصهاره إلى قبيلة جرهم القحطانية بزواجه من رعلة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي ، وكانت قبيلة جرهم يومئذ في مكة ، فتعلم لغتها وعلّمها أبناءه العدنانيين ([6]) .

ويذكر الأخباريون أن إبراهيم لما بنى مكة وأنزلها ابنه إسماعيل سمع كلام العرب فأعجبته لغتهم واستحسنَها، فأمر ابنه إسماعيل أن يتزوّج إليهم ([7]) . ففعل وتخلّى عن لغته الأصلية السريانية أو العبرية ، وتعلّم العربية وعلّمَهَا أبناءه العدنانيين ، وهؤلاء كلهم من ولد إسماعيل .

---

(4) نهاية الأرب للنويري 292/2 .
(5) طبقات ابن سلام 9/1 .
(6) المصدر السابق .
(7) الأغاني للأصفهاني دار الكتب 7/15 .

وأبادر فأقول إن مرويّات الأخباريين ينبغي أن تؤخذ بكثير من الحذر، فانتساب العدنانين جميعًا إلى إسماعيل هو موضع نظرٍ ، فهل كانت جزيرة العرب خاليةً من سُكّانها يوم قَدِمَ إبراهيم وإسماعيل إلى الحجاز ؟ ألم تكن هناك قبائل عربية مبعثرة في أنحاء الجزيرة وكان لهذه القبائل لغاتها ولهجاتها ؟

إننا إذا استقرأنا الشعر الجاهليّ المقول سواء في شمالي الجزيرة أو في جنوبيّها ، من خلال النماذج التي وصلتنا ، وهي ترجع إلى زهاء قرنين قبل الإسلام ، نجد أن لغة هذا الشعر تكاد تكون واحدة ، باستثناء فروق ضئيلة بين أشعار اليمنيين والعدنانيين ، بل إننا نجد شعراء يمانيين عاشوا في شمالي الجزيرة ، في نجد وما حولها ، يقولون شعرهم بلغة الشعراء العدنانيين . فشعر امرئ القيس الكندي اليماني الأصل مثلاً لا يختلف في لغته عن شعر شعراء مضر وربيعة المعاصرين له كعلقمة بن عبدة الفحل التميمي الذي كان يباري امرأ القيس في شعره والحارث بن حلّزة اليشكري الربعيّ وعبيد بن الأبرص الأسدي الذي كان ينطق بلسان قومه بني أسد الذين قتلوا حُجْر بن الحارث أبا امرئ القيس ، والشعر هو سندنا الأول في الحكم على لغة القبائل عصرئذ . فهل كانت لغة الشعراء العدنانيين مستعارة من لغة القحطانيين ؟ هذه القضية فيها نظر ولا يمكن الجزم بحقيقتها في يومنا هذا لعدم توفر الوثائق والنصوص والنقوش التي تجعلنا نرجّح رأيًا على آخر .

على أنّني أبادر فأقرّر أن التّشابه في لغة الشعر الجاهلي لا يعني أن اللغة العربية كانت واحدة في جميع أرجاء جزيرة العرب ، فلغة الشعر قد تكون لغة راقية تؤيد نظرة القائلين بوجود لغة أدبية مشتركة في ذلك العصر ، وهذه الظاهرة تماثل ما نجده اليوم من اختلاف اللهجات العامية في مختلف الأقطار العربية ، حتى ليعسر أحيانا التفاهم بين مواطني قطر ومواطني قطر آخر ، ومع ذلك ثمة لغة عربية فصيحة مشتركة يقال بها الشعر وتُؤَلَّفُ الرّوايات وتُكْتَبُ المقالات والبحوث وتُلْقَى المحاضرات .

لكنني أعود فأقرّر أن هذه اللغة الأدبية المشتركة بين شعراء العصر الجاهلي ليست واحدة لدى جميع الشعراء ، ومن السنن العلمية المقرّرة اختلاف اللغات باختلاف البيئات ،

وهذه الاختلافات تلتمس أولاً في استعمال ألفاظ بعينها في بيئة ما تخالف ما نجده في سائر البيئات ، ونلتمسها كذلك في أساليب التعبير وفي دلالات الألفاظ .

وقد أورد ابن فارس بعضًا من وجوه الاختلاف بين اللغة العدنانية واللغة القحطانية ، كتسمية هؤلاء الذئب : القِلَّوْب ، وتسميتهم الأصابع : الشَّنَاتِر، ويسمُّون الصديق : الخِلْم (8) ، وورد في القرآن لفظ (الأبُّ) بتشديد الباء ، وهو من لغة اليمن ومعناه الكلأ ، واليمنيون يسمّون المُدية : السِّكِّين . وفي معجمات اللغة ألفاظ غيرها من لغة اليمن تخالف مرادفاتها في لغة عدنان ، وهذا الاختلاف طبيعيّ لا اعتراض عليه ، لأن بيئات السكان الناطقين بلغة واحدة تختلف في تسمية كثير من الأشياء ، وهو ما نجده اليوم في اختلاف التسميات باختلاف المدن والبيئات . بل إننا واجدون هذا الاختلاف في لهجات القبائل التي ترجع إلى أصل مشترك ، كالذي نجده في اختلاف لهجات القبائل العدنانية سواء في التسميات أو في القواعد النحوية أو في نطق الحروف والكلمات ، ومنها على سبيل المثال : كشكشة أسد (إبدال الكاف شينًا) وعنعنة تميم (إبدال الهمزة عينًا) ، وكسكسة ربيعة (إلحاق حرف السين بما آخره كاف) ، ومنها إهمال عمل (ما) المشبهة بليس في تميم وإعمالها في الحجاز . وقد أورد ابن فارس جانبًا من اختلاف لهجات طائفة من القبائل في نطق الحروف (9) .

وهذه الاختلافات تقودنا إلى القول بضرورة الاحتراس من التعميم حين نتصدى إلى رصد ما في الشعر من ألفاظ وتعابير واختلافات في القواعد النحوية بغية الوقوف على الدلالات الحقيقية والمجازية في هذا الشعر في مجال تأريخ حياة اللغة العربية وتطورها التاريخي .

فأوّل ما ينبغي صرف العناية إليه هو استقراء دلالات الألفاظ والتراكيب في لغة كل قبيلة من قبائل العرب ، وهذا الاستقراء يكلّف الباحث جهدًا عظيمًا في جمع أشعار كل قبيلة على حدة واستخلاص دلالات الألفاظ والتراكيب في كل منها .

---

(8) الصاحبي في فقه اللغة ، تحقيق مصطفى الشويمي ، ص 55 .
(9) المرجع نفسه ، ص ص 48 – 49 و53 – 55 .

فكذلك نرى أن المنهج العلميّ الذي نصل بواسطته إلى إدراك التعريف الدلالي في المعجم التاريخيّ وتحديده على وجه الدقة يقتضي وضع معجم للغة كل قبيلة في العصر الجاهليّ ، أو على الأقلّ وضع معجم للغة كل مجموعة قبلية ، فنضع معجمًا للغة القبائل الربعية ، وآخر للقبائل المضرية المنحدرة من خندف ، وآخر لقبائل قيس عيلان المضرية ، ورابعًا للغة القبائل المتحضرة التي استوطنت المدن والحواضر ، وكذلك ينبغي وضع معجم لكل مجموعة قبلية كانت تعيش في اليمن، مع رصد الأصول والجذور اللغوية المشتركة بين هذه اللغات .

لقد وضع اللغويُّون العرب في عصر التّدوين شروحًا كثيرةً لدواوين الشعراء الجاهليين ، ولكن لنا على هذه الشروح الملاحظات الآتية :

1 - إن هؤلاء اللغويّين لا يتفقون في كثير من الأحيان في بيان دلالات طائفة من الألفاظ الواردة في تلك الدواوين ونجد بينهم اختلافًا كثيرًا .

2 - إن هؤلاء اللغويّين لم يُلاحظوا الفروق الدلالية بين عبارات الشعر الجاهلي ، وقد جعل بعضهم لغة قريش ولغة القرآن معيار إدراكهم لهذه الدلالات ، مع أن لغة قريش خاصة بتلك القبيلة ، وبينها وبين لغات القبائل الأخرى ، ولا سيما البدويّة منها ، فروق كثيرة . وقد رأينا الرسول صلى الله عليه وسلم يترخَّص في قراءة القرآن بلهجات مختلفة في حديثه المشهور : "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف" ([10]) .

3 - إن السبيل الأقوم لإدراك دلالات الألفاظ والتعابير في شعر الجاهليين وتعريفها إنما يتأتى من استخلاص هذه الدلالات من السياق ، مع استقراء هذا السياق حيثما وردت الكلمة في أشعار الجاهليين المنتمين إلى أصل قبلي واحد .

وأسوق مثلاً واحدًا لاختلاف دلالات الألفاظ باختلاف القبائل ، فالفعل (شَايَحَ) في لغة هذيل معناه : جَدَّ في الأمر ، قال الشاعر المخضرم أبو ذؤيب الهذلي :

بَدَرْتَ إلى أُولاَهُمُ فَسَبَقْتَهم  وَشَايَحْتَ قَبْلَ اليوم إنَّكَ شِيحُ

---

(10) صحيح البخاري ، 100/6 .

هذا ما ورد في اللّسان و لم ينصّ صاحبه على أنه من لغة هذيل ، وفي شعر أبي خِراش الهذلي جاء هذا الفعل في صيغة اسم الفاعل :

وَشُوطٍ فِضَاحٍ قد شَهِدْتُ مُشَايِحًا  لأُدْرِكَ ذَحْلاً أو أُشِيف على غُنْمِ

وجاء في شرحه : "المُشَايِحُ الجادُّ الحامل في كلام هُذَيل" ([11]) ، فالفعل (شَايَحَ) هو بمعنى جدَّ في الأمر في لغة هذيل و لم يشر صاحب اللسان إلى أنه من لغة هذيل ، وقد دخل هذا الفعل في المعجمات اللغوية بهذه الدلالة ، فصارت له دلالة لغوية عامة كأنه من لغة جميع القبائل العربية ، ونحو هذا كثير في معجمات اللغة التي لم تنصَّ على الفروق القبلية في دلالات الألفاظ .

## 2 – دلالاتُ الألفاظِ والتّعبيرات اللغويّة في المرَاحِل الإسلاميّة :

فإذا انتقلنا إلى العصر الإسلامي والعصور التي تلته تغدو قضية التعريف الدّلالي أكثر تعقيدًا . فمع بقاء الفروق اللهجية وُجدت لغة (رسمية) هي لغة السلطة القائمة ، لغة قبيلة قريش التي بها نزل القرآن ، وبها كُتِبَت مصاحف عثمان ، وبها أُلْقِيَت خطب الخلفاء والولاة وقادة الجيوش . ولكن لغة الشعر احتفظت ببعض الفروق لاختلاف قبائل الشعراء، وكان شعراء قريش قلّة بالقياس إلى سائر الشعراء ، وكان جلّ الشعراء في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم من غير قبيلة قريش : من الأنصار (حسّان بن ثابت وكعب ابن مالك وعبد الله بن رواحة) ، وكان خطيب الرسول صلى الله عليه وسلم منهم وهو ثابت بن قيس بن الشمّاس ، وسائر الشعراء من قبائل شتّى ومنها : هُذيل وثقيف ، وطيْء ، وسُليم ، وتميم ؛ ولكن بوجه عامّ ، فإن لغة القرآن تركت بصماتها في لغة الأدب شعره ونثره . وفي القرآن ألفاظ كثيرة مستجدّة وألفاظٌ أخرى كانت معروفة قبله ولكنها اكتست معاني جديدة إسلاميّة ، كالصلاة والزكاة والحج والصوم وعشرات من الألفاظ الأخرى ، وفيه ألفاظ معرّبة وألفاظ توراتية وألفاظ من لغات يمنية لم تعرفها قريش .

---

(11) ديوان الهذليين ، ص 13 . وكتاب أبرز خصائص لغات هذيل لعبد الرحمان محمد إسماعيل ، مجلة معهد اللغة العربية بجامعة أم القرى ، العدد الثاني ص 205 .

فكذلك نرى أن ظهور الإسلام ونزول القرآن قد أحدثا هزّة لغويّة ووثبة تطورية عظيمة الشأن ، ولهذا لا بدّ من الاتجاه بادئ ذي بدء إلى رصد التطور الذي أصاب اللغة العربيّة منذ الإسلام وتقصي الدلالات القرآنية بدقة ، سواء في الألفاظ أو في التراكيب أو في الدلالات المجازية .

ولرصد هذا التطور العظيم نعود أوّلاً إلى كتب التفسير المعتمدة ، مع ملاحظة ما بينها من وجوه الاختلاف أحيانا في إدراك دلالات طائفة من الألفاظ ، ولا سيما ما كان منها من غير لغة قريش ، مع ملاحظة انتماء طائفة من المفسرين إلى فرق ومذاهب فرضت عليها تأويلات باطنية أو مذهبية ، فينبغي استبعاد مثل هذه التفاسير الموجهة واعتماد كتب التفسير التي التزمت الدّلالات اللّغوية البريئة من مظنة التأويلات البعيدة أو الموجّهة .

وأضرب مثلا لاختلافات المفسرين في دلالات الألفاظ القرآنية اختلافهم في دلالة اللفظ القرآني (الرَّقيم) الذي ورد ذكره في الآية التاسعة من سورة الكهف : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ والرَّقِيمِ كانوا من آياتِنَا عَجَبًا ﴾ . فقد فُسِّرَت في تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي، باللَّوْحِ المكتوب فيه أسماؤهم وأنسابهم (أي أهل الكهف) ، وفسّرها ابن دريد بالدواة ، وعلّق صاحب اللسان في مادة (رقم) على هذا التفسير بقوله : ولا أدري ما صحته . وفسَّرَها ثعلب باللَّوْحِ . وقال الزجّاج : قيل الرَّقِيمُ اسم الجبل الذي كان فيه الكهف . وقيل اسم القرية التي كانوا فيها ، وقيل الرَّقيم : الكتاب ، وأظهر ابن عباس حيرته من دلالة هذا اللفظ فقال : ما أدري ما الرَّقيم ، أَكِتَابٌ أَمْ بنيَانٌ . وذهب أبو القاسم الزجاجي إلى أن في الرّقيم خمسة أقوال : أحدها عن ابن عبّاس أنه لوح كتب فيه أسماؤهم ، الثاني : أنه الدواة بلغة الرُّوم (عن مجاهد) ، الثالث : القرية (عن كعب) ، الرّابع : الوادي ، الخامس : الكتاب (عن الضحاك وقتادة) ، وإلى هذا القول يذهب أهل اللغة . وفي الحديث : كان يسوِّي بين الصفوف حتى يدعها مثل القدح أو الرّقيم ، والرّقيم : الكتاب ، أي حتى لا ترى فيها عِوجًا كما يُقَوِّمُ الكاتب سطوره .(12)

(12) لسان العرب مادة (رقم) .

فهذه جملة أقوال في تفسير لفظ قرآني واحد ، وهو لفظ يبدو أنه لم يكن معروفًا في لغة قريش ، ويحتمل أن يكُون مُعَرَّبًا عن لفظ من لغة أخرى . وفي سبيل الوصول إلى معرفة دلالته على وجه الدقّة لا معدى لنا عن النظر في سياق الآيات المذكورة قبل آية الرّقيم وبعدها ، وكذلك لا بدّ من الرجوع إلى المصادر غير العربية التي وردت فيها هذه الكلمة ، بنفسها أو بلفظ قريب منه .

وعلى أي حال يبقى القرآن مَعْلَمًا تاريخيًّا بارزا في تطور اللغة العربية . وكان هذا التّطور نتيجة انتقال العرب من عصر التفرّق القبليّ إلى عصر التوحّد في ظلّ الرّابطة الإسلامية . وقد دخلت منذ ذلك الحين في اللغة العربية مئات من الألفاظ الجديدة ، ومثلها من ألفاظ قديمة اكتست دلالة إسلامية ، فلا بدّ من وقفة متأنيّة عند الألفاظ والاستعمالات القرآنية لتعرّف دلالاتها ومواطن استعمالها .

ومنذ العصر الإسلامي إلى عصر النهضة دخلت أيضًا ألفاظ لا تحصى في اللغة العربية وأصاب دلالات هذه اللغة تطور عظيم الشأن ، ومن الظواهر السلبية التي تعرضت لها هذه اللغة فُشُوُّ اللّحن وفساد الألسنة والسليقة اللغوية التي كانت تعصم الألسنة من الزّلَلِ .

ودواعي هذا الفساد كثيرة ، من أبرزها مخالطة الأعاجم وحلول البيئات الحضرية محل البيئات البدوية . وقد وجدنا أن الخلفاء كانوا يرسلون أبناءهم إلى البادية لمشافهة الأعراب وتقويم ألسنتهم ، وقد ذُكِرَ لنا أن الوليد بن عبد الملك كان يلحن في كلامه لأن أباه احتفظ به في الحاضرة لميله إليه. ومن المعلوم أن السليقة اللغوية الفصيحة تضعف وتفسد في البيئات الحضرية .

إنّ رصد تطوّر اللغة في تلك الحقبة الطويلة يكلف الباحث الكثير من العناء والمشقة، ولم يعد الاعتماد على النماذج الشعرية كافيًا لتقصي هذا التطور . وإنما ينبغي استقصاء كتب الأدب والعلوم والفلسفة والتاريخ والجغرافية والمؤلفات الفقهية والكلامية والصوفية ، ورصد لغة كل من هذه المؤلفات وجمع مئات النصوص المتصلة بكل حقبة

زمنية على امتداد ما يزيد على أربعة عشر قرنًا ، ثم استخلاص دلالات الألفاظ والتراكيب في مَجَالَيْ الحقيقة والمجاز مع بيان الدّخيل من طريق الوضع والتعريب والترجمة والاصطلاح .

وبديهي أن اللفظ الواحد قد تختلف دلالته في العصر الواحد باختلاف الانتماء العقدي والمهني والثقافي ، وباختلاف مجالات استعماله لدى المؤرخين أو الفلاسفة أو المتصوفة أو الأدباء ، ولا مناص من إعداد معجم للغة كل فئة من هذه الفئات .

على أن معاجمنا جرت على إثبات جميع دلالات اللفظ ، من غير ملاحظة ما طرأ عليها من تطور عبر العصور ولدى مختلف الفئات . ومن هنا نتبين الضرورة الملحّة لوضع معجم تاريخي يؤرّخ حياة اللغة العربية منذ أقدم عصورها حتى اليوم .

ولنأت بمثال يوضح هذا التّعميم غير الدقيق في معاجمنا ، فلنرجع مثلا إلى الجذر اللغوي (كتب) في لسان العرب ، وهو من أشيع الجذور في الاستعمال .

فالدّلالة الأصلية المادية التي يدل عليها هذا الجذر هي : كَتَبَ السِّقاءَ والمزادةَ والقِرْبَةَ إذا خَرَزَها بسَيْرَيْن ، فهيَ كَتِيبٌ ، وكَتَبْتُ القربَةَ واكتَتَبْتُها : شَدَدتُها بالوكَاء وخرَزْتها لئلاّ يَقطر منها شيءٌ ، ومن هذا الأصل قالوا : تَكَتَّبَ الرَّجُلُ أي تَحَزَّمَ وجَمَعَ عليه ثِيَابَهُ . ومن هذا الأصل أيضا قولهم كَتَبَ النَّاقَةَ إذا صَرَّهَا لئلاّ يُنــْزَى عليْها ، وعليْه قولُ الشاعر :

لاَ تَأْمَنَنَّ فَــزَارِيًّا خَلَوْتَ به        عَلى قَلُوصِكَ واكْتُبْها بأَسْيَار

ومن هذا أيضا قولهم كَتَبَ النَّاقَةَ أي خَزَمَ مَنْخَرَيْهَا بشيء لئلاّ تشمّ ولدها فلا ترْأَمَه . ومن دلالات هذا الفعل كذلك قولهم : كَتَّبَ الخَيْلَ أي جَمَعَهَا ، والكَتِيبَةُ : الخَيْلُ المُجْتَمِعَةُ . ثم أُطْلِقَ هذا اللفظ على القطعة العظيمة من الجيش .

وقد أرجع اللغوي المعروف شَمِر بن حمدويه (ت 255 هــ) هذا الجذر إلى أصل واحد فقال : "كل ما ذُكر في الكُتب قريب بعضه من بعض وإنّما هو جَمْعُكَ بيْن شيئين . يقال اكْتُبْ بغلتك ، وهو أن تَضُمَّ بين شُفْرَيْهَا بحلقة ، ومن ذلك سُمِّيَت الكَتِيبَة فإنها تَكَتَّبَت فاجْتَمَعَت ، ومنه قيل : كتبتُ الكتاب ، لأنه يجمع حرفًا إلى حرف" : (اللسان : كتب) .

وجاء في معجم (مقاييس اللغة) لابن فارس قوله : "كتب : الكاف والتاء والباء أصل صحيح واحد يدل على جمع شيء إلى شيء ، ومن ذلك : الكتاب والكتابة" .

فالأصل الماديّ في دلالة لفظ الكتابة هو الجمع بين شيئين ، أي جمع حرف إلى حرف ، وهذا هو التطور الذي أصاب معنى الجذر (كتب) ، وتلك هي الدلالة الأصلية للكتابة بالمعنى المعروف .

ثم تطورت دلالة الفعل (كَتَبَ) إلى معنى (فُرِضَ) ، وبهذه الدّلالة ورد في القرآن آيات كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عليكمُ الصّيَامُ كما كُتِبَ على الذين من قبْلكم لعلّكُمْ تَتّقُون﴾ (البقرة، 183)، واكتسى دلالةً مقاربة بمعنى (قُدِّرَ) و(حُكِمَ) فيقالُ : كُتِبَ عليّ أن أفعل هذا الأمر ، أي قُدِّر عليّ .

ومن الفعل (كَتَبَ) اشْتُقَّ اسم (الكتاب)، ومعجم اللسان يعرّف الكتاب بالعبارة المعروفة لدى اللغويين القدماء فيقول : وهو معروف ، وهذا التعريف الدلالي القاصر هو أحد المآخذ على المعجمات القديمة .

وما لبث لفظ (الكِتَاب) أن تطوّرت دلالته مع لحظ الأصل الماديّ ، فقالوا: الكِتَابُ اسم لِمَا كُتِبَ مَجْمُوعًا ، والكتابةُ هي صناعَةُ الكَاتِب ، فأُطْلِق لفظ الكتاب على الرسالة المكتوبة ومن ذلك الحديث الشريف : "من نظر في كتاب أخيه بغير إذنه فكأنما ينظر في النار" [13] ، ومنه قول لقيط بن يَعْمُر الإيادي في قصيدته التي حذّر بها قومه من بطش كسرى :

هذا كتَابِي إليكم والنَّذِيرُ لكم  لمن رأى الرأي بالإبرام قد نصعا

وانصرف منذئذ معنى (كَتَبَ) إلى كتابة الرسائل والكتب ونحوها ، وفي الحديث : "من كَتَبَ عنّي غير القرآن فليمحُه" [14] .

ثم اكتسى لفظ (الكِتَاب) دلالةً دينيةً فأُطْلِقَ على التوراة والقرآن . ووردت هذه الدلالة في القرآن في مواضع عدّة منها قوله تعالى : ﴿ كتابٌ أُحكمت آياتُه ثم فُصِّلت من لَدُن حَكِيمٍ خَبِير ﴾ (هود، 1) . فالكتابُ هنا بمعنى القُرآن . وبمعنى التوراة في قوله

---

(13) سنن أبي داود ، الدعاء 1 .
(14) صحيح مسلم ، باب الزهد ص 73 .

تعالى : ﴿ كتابُ موسى إمامًا ورَحمةً ﴾ (هود، 17) ومن هذا المنطلق أُطْلِقَ لفظ (أَهْلُ الكِتَاب) .

ثم أُطْلِقَ لَفْظُ (الكِتَاب) على ما أُثبت على بني آدم من أعمالهم ، وتطوّرت دلالة الكتاب فأطلق على أدوات الكتابة : الصحيفة والدواة .

ومن الكتابة اشتُقَّ اسم الفاعل (الكَاتِبُ) ، فأُطلق أوّلا على من يمارس عمل الكِتَابَةِ ، فكان للرسول صلى الله عليه وسلم كُتّاب يكتبون القرآن ، وكان بعدئذ للخلفاء الراشدين وخلفاء بني أميّة وبني العباس كُتّاب يكتبون رسائلهم .

ثم تطوّرت دلالة (الكَاتِب) ، فأُطلق على الحاذق في فنّ الكتابة والترسل وجمعه (كُتَّابٌ) ، ومن أشهرهم قديما عبد الحميد الكاتب ، وأصبح للكتابة الفنية منزلة عظيمة وذاع اسم الكُتّاب الحاذقين أمثال ابن المقفع والجاحظ وابن العميد والقاضي الفاضل وغيرهم ، وغدت الكتابة فنًّا راقيًا تكتب فيه الرسائل والكتب .

وفي العصور اللاحقة اكتسب لفظ (كاتب) ، دلالة مُسْتحدثة ، فأُطلق على الوزير وعلى من يتبوأ منصبا رفيعا في الدولة فيقال (كاتب الدولة) .

وفي العصر الحاضر بقيت لكلمة (كاتب) دلالتان : أوّلاهما وظيفية يراد بها من يعين في وظائف الدولة لأداء مهمّات كتابية ، والثانية يُراد بها الكاتب بمعنى الأديب الماهر في فن النثر .

ولنأخذ مثالا آخر هو الجذر (قتل) .

كان لهذا الجذر قبل الإسلام ثلاث دلالات ، اثنتان ماديتان والثالثة معنوية . والدلالة الأولى هي الأعم وهي إزهاق الروح ، والقتال في العصر الجاهلي كان يعني خوض المعارك مع الآخرين بدافع الغزْو أو الثأر أو الدّفاع عن النفس أو حماية القبيلة . والفعل (قَاتَل) يدُلُّ على الاشتراك في القِتَالِ ، والفعل (تَقَاتَل) كان يدل على التَّبَادُلِ في القِتَالِ ، وأمثلة هذه الدّلالات أكثر من أن تحصى في الشعر الجاهلي .

والدلالة الثانية للفعل (قَتَلَ) هي المَزْجُ ، وهي دلالة استعارية مستمدّةً من المعنى الأصلي ، فكلتاهما تدلاّن على إقحام شيء في شيء، وفي الغالب كان هذا الفعل يستعمل في مزج الخمر بالماء . قال حسان بن ثابت :

إنّ التي عَـاطيـتَني فَـرَدَدْتُـهَا  قُتِلَتْ قُتِلْتَ فَهَـاتِهَـا لم تُقْتَلِ [15]

والدّلالة المعنوية هي أثرُ الحُبِّ في النفس والخضوع للمحبوب ، وهي كذلك مستوحاة من المعنى الأصلي ، ومنه اشتُقَّ اسم المفعول (مُقَتَّل) أي قتله العشق ، قال امرؤ القيس :

وما ذرَفَتْ عَيْنَاكِ إلاّ لِـتَضْرِبي  بِسَهْمَيْكِ في أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقَتَّلِ [16]

فلما جاء الإسلام تطوّرت دلالة الفعل (قَاتَلَ) والمصدر (القِتَالُ) فاكتسيا غلالة دينيَّة ، فأصبح يدل على القتال في سبيل العقيدة الدينية ، وآيات القتال كثيرة جدًا في القرآن منها قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا يُقَاتِلُونَ في سبيل الله والذين كفروا يُقَاتِلُونَ في سبيل الطاغوت ، فَقَاتِلُوا أَوْلياء الشيْطان﴾ (النساء ، 76) .

وتطوّرت دلالة الفعل (قَتَلَ) الحقيقية إلى معنى مجازي هو الإمعان في بحث الأمر والنظر فيه ، فيقال : قَتَلَ المَوْضُوعَ بَحْثًا .

ممّا تقدم نرى أن قضية التعريف الدلالية من أهم القضايا التي تعرض لمن يتصدى لوضع معجم تاريخيّ للغة العربية ، ومعالجتها تتطلب جمع كل ما وردت فيه الكلمة من النصوص القديمة والمحدثة وكذلك التعبيرات ، والتراكيب الحقيقية والمجازية ، ثم إدخال هذه المواد في الحواسيب ، ثم وضعها بين يدي باحثين كفاة يفرغون لرصد الدلالات المختلفة لكل مادة لغوية من خلال السياق والتعريفات اللغوية . وقد يحتاج الأمر إلى مقارنات مع اللغات السامية الأخرى ، وإلى دراسات صوتية وفيلولوجية للحروف العربية والجذور اللغوية وطرق تأليف الكلمات واشتقاقاتها .

---

(15) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وليد عرفات ، 75/1 .
(16) شرح المعلقات السبع للزوزني ، تحقيق محمد علي حمد الله ، ص 92 .

وليس بين أيدينا دراسات تسعفنا في تحقيق هذا الرصيد اللغوي الهائل إلا مؤلفات قليلة من أهمها : كتابا (الصاحبي) و(المقاييس) لابن فارس (ت 395 هـ) ، وكتاب (الخصائص) لابن جني (ت 392 هـ) ، وكتاب (أسباب حدوث الحروف) لابن سينا (ت 428 هـ) ، وكتاب (الألفاظ) لابن المرزبان (ت 330 هـ) ، والمزهر للسيوطي (ت 911 هـ) .

وهذا البحث لا يعدو أن يكون تمهيدًا لدراسة مفصلة وافية في موضوع (الدلالات اللغوية) أرجو أن يتاح لي إعدادها في المقبل من الأيام .

**إحسان النص**

**عضو مجمع اللغة العربيّة بدمشق**